آلات الحصار بالمغرب خلال القرنين 5و6هـ/11و12م بين التنوع و الفعالية.

الدكتور/ بوقاعدة البشير

–جامعة محمد لمين دباغين. سطيف2–

الملخص بالعربية:

تعالج مادة هذا المقال بالدراسة والتحليل أهمّ انواع الأسلحة القتالية الهجومية الثقيلة. كما تتبّع صاحبه مسيرة تطوّر آلية سلاح الحصار من خلال الكشف عن الجهود التي بذلتها القيادة العسكرية المغربية خلال القرنين 5و6هـ/ 11و12م لإحداث التوازن بين مقوّمات الدفاع ومعاول حرب الهجوم، وتحديد أهمّ التحسينات التي أدخلتها على آليته تماشيا مع التطور الحاصل في هياكل الجيش المغربي وتنظيماته العسكرية، سواء لتغذية المشاريع العسكرية التي سطّرتها هذه القيادة أو تلبية لحاجة الدفاع والتعايش مع المستجد العسكري الذي طبع الساحة الحربية وأملى عليها طبيعة السلاح الأقدر على تدعيم ترسانتها الحربية لتجاوز الظرف ومسايرة حجم التحدّي.

الملخص بالإنجليزية (Abstract):

This article deals with the types of fighting weapons that were a principle mean used by the army forces in Islamic Maghreb during the attack wars that took place between the eleventh and twelfth (11 AD & 12 AD). That is through dealing with the interest of those forces in making and fabricating these weapons with all their kinds; both for earth and sea attack. Also, the article examines the effectiveness of these weapons in realizing the different attack operations the Maghrebian army witnessed. In addition to that, the skillfulness of the Maghrebian army forces in using this type of war vise-a-vis the development taking place in their organization, and the important improvements they made to their weapons during the above mentioned period of time.

مقدمة:

بالرغم ممّا جادت به قرائح الباحثين من دراسات للظاهرة العسكرية في العصر الوسيط إلاّ أنّ ذلك الكمّ من الأبحاث لا يزال بعيدا عن استيفاء الظاهرة حقّها من الدراسة والتحليل والشمولية، ذلك أنّ زخم الأحداث التي تبني صرحها، تمثّل مساحة بحثية جدّ واسعة، تجاوزت إلى حدّ كبير الوعاء البحثي الذي اقتحم دراستها. لذلك فإنّ تلك السيول من الأبحاث والجهود المتآلفة من طرف الباحثين للظاهرة، تشكّل شوطا قصيرا من مسيرة بحثية لم يُراوح انتاجها شاطئ بحرها، وتظل آنئذ أحداثها في حاجة لأشواط عدّة تُقطع من غيرهم من الباحثين لاستكمال المسيرة البحثية، والنبش في الأعماق لتذليل الصعاب أمام سطوع شمس العديد من الحقائق التاريخية الكامنة في باطن التاريخ العسكري، وفكّ مستلغزات عديد أحداثه، ولملمة شمل متفرّق هذه الأحداث، سواء تعلق الأمر بالفنون الحربية المتّبعة في خضم الصراع العسكري ببلاد المغرب في ثوب الحصار على اختلاف جبهاته وغاياته وأطرافه أو بآلات الحصار التي كانت القوام الأساس لخوض معترك حربه.

ومن هنا، كانت الاشكالية التي رأينا أن تضطلع الاجابة عنها بكشف المراد، تلك التي تنصبّ فروعها حول: ماهية مكونات منظومة آلات الحصار ببلاد المغرب؟ وفيما تتجلّى مظاهر نكايتها على دفاعات الخصم؟ وما حجم التفاوت في مستويات التحكم في استخدام هذه الآلية بين مختلف القيادات المغربية خلال الفترة مدار الدرس؟

أولا: حرب الحصار[1] ومنظومة التسليح المغربية:

في ظل الحركية الكبيرة التي طبعت منظومة البناء والتحصين لتوفير وسائل الوقاية وتفعيل سبل تقوية المناعة الدفاعية، عرف السلاح الهجومي[2] بالموازاة مع ذلك تطورا ملحوظا، حيث سعى القائمون على السياسة العسكرية المغربية لإحداث توازن بين المنظومتين الدفاعية والهجومية، وهو ما رسمته بشكل جلّي صور المنافسة للرفع من مردودية السلاح، وتنويع معدّاته بالقدر الذي يفي بالغرض الهجومي ويضطلع بتحقيق فعل الغلبة والظفر بالنصر على الخصوم مهما تصاعدت وتيرة نمو المظاهر الدفاعية الطبيعية والمشيّدة التي أعدُّوها لحيازة حياة آمنة بين ضلوعها[3].

ولئن كان لقوة سلاح الحصار وتنوّعه، فعالية كبيرة في رسم معالم النصر والغلبة قبل المسير إلى حصار الخصوم ويُنبأ في رؤية استشرافية بمظاهر عالية من فعالية الفتك بمقوماته الدفاعية والاقتراب من ملامسة فعل الاخضاع، فإنّ ذلك لا يعني مطلقا تجاهل المقوّمات الهجومية الأخرى كالسلاح البشري، والاستثمار في قدراته القتالية وتنميتها وتطويرها بالموازاة مع الجهود العسكرية لبناء ترسانة من الأسلحة الهجومية الفتاكة، أو التغافل عن غيرهما من مقوّمات الإعداد المثالي لشنّ حرب هجومية في ثوب الحصار، تستجيب لحجم المشروع الحربي المسطور. وهو ما يُحيلنا إلى الإشادة بعامل التشاركية والاستخدام الوظيفي المحكم وتوزيع القوة المتوازن لبلوغ مسعى تضامنية مكونات الجهاز الحربي الهجومي؛ ما دام الإعداد المادي والمعنوي للجيش لا يكفي وحده للظفر بنتائج معارك الحصار، ولا التخطيط العسكري المحكم الذي يفي بذات الغرض إذا كان منفصلا عن غيره من الأجهزة والمقومات. لذلك فالإعداد المتكامل من حيث بناء الجيوش وقوتها والبراعة في الفنون الحربية وتكتيكاتها وامتلاك الترسانة القوية من الأسلحة القتالية وحسن استخدامها، هو ضرورة حربية ينبغي وعي مقوماتها وإدراك فعاليتها والتقيّد بشروطها والأخذ بقواعدها.

فما من شكّ في أنّ فعل التخطيط العسكري، يعدّ ركنا أساسيا في تحقيق العملية الأمنية وانجاح عملية الحصار العسكري، وأولى أولويات النشاط الحربي الهجومي؛ فالتخطيط السليم يقود في غالب الأحيان إلى نتائج سليمة وناجعة؛ فهو عبارة عن عملية التفكير المنظم والدقيق الذي يسبق العمل الهجومي ويرسم ملامحه. وهذا التخطيط في الحقيقة يحتاج إلى كمّ هائل من المعلومات الدقيقة عن أحوال العدو من كل جانب سواء ما تعلّق بقدرته العسكرية أو مخططاته الحربية وما يضمر هذا الخصم من نوايا عدائية طويلة أو قريبة المدى وما يحتمي به من دفاعات ويُلقي على عاتقها بكافة رهاناته الأمنية الوقائية، ولا شكّ أن هذه هي المهمة التي تضطلع بها قوات الجواسيس وعيون الجهاز الاستخباري؛ هي التي من شأنها استطلاع الأخبار وتزويد القيادة بكل طارئ، حتى تكون هذه الأخيرة على بيّنة من أمرها، وعلى استعداد دائم لأي مستجد، معركة مباشرة كانت أو حصارا عسكريا. ولقد كانت القيادة العسكرية على بيّنة من مزايا هذا التخطيط إلى جانب الاتكاء على كاهل قوة السلاح وخبرة الجنود، حيث بُثّت العيون في صفوف الجند وداخل الحصون والقلاع، وزُوّدت بالإمكانات المادية لحسن القيام بالمهمة؛ لأنّها أدركت أنّ المخطّط الناجح

والذي يروم الظفر بالنصر في الحرب الهجومية لابدّ أن يقف بشكل مستفيض على أحوال عدوّه صغيرة أو كبيرة ولا يستصغر شأن خصمه، خصوصا ما تعلّق بكفاءات جنودهم القتالية وذخائرهم ومعدّاتهم الحربية[4].

ثمّ إنّ من بين أهمّ ما ينطق بلغة فصيحة عن ذلك الوعي المغربي والحرص على بناء قوة عسكرية تُلبّي حاجة القيادة العسكرية، ما وقفنا عليه من تصاعد في وتيرة النمو والتطور ضمن مكونات المؤسسة العسكرية المغربية لا سيّما في مجال التحكّم في التقنية الحربية وتنويع نظام التسليح والإكثار من معدّاته والرفع من مردوديته وتنويع استخداماته، بحيث اقترن إلى حدّ كبير عبر مراحل الفترة الوسيطة بحجم الإمكانات الحربية المادية والبشرية التي تمتلكها أيّ قوة عسكرية مغربية، ومدى الاهتمام الذي حظي به نظام التسليح وتقنيات الاخضاع وطرائق القتال واستخدام السلاح من طرف القائمين على الكيانات السياسية التي قامت على أرض المغرب في تلك الفترة، وكذا حجم المشاريع الحربية والمطامح العسكرية المسطّرة. وتنجلي الرؤية أكثر مع تجاوز القيادة العسكرية لنظام التسليح القائم على فعالية السلاح الهجومي الخفيف كالسيوف والخناجر والدروع والسهام والنبال وغيرها من الأسلحة الخفيفة خاصة في فترة ما قبل القرن 4هـ/10م إلى الرعاية الكبيرة التي حظي بها سلاح الحصار الثقيل من لدنها كالمنجنيق والدبابة ورأس الكبش، والاستثمار الفاعل في دروب استخداماته وتطوير آليته، وتجاوز الاعتماد أيضا على ما تنتجه الصناعة المحلية[7] من مادة السلاح دون الوقوف على ما أضحى عليه الخصوم أو الطرف الآخر من قوة عسكرية إلى الاستفادة من رصيد فكره العسكري بالشراء والاستيراد. كما لم تقتصر القيادة المغربية على استثمار السلاح الحربي الناجع لقيادة معارك المواجهات المباشرة والمكشوفة كحرب الصحراء والكر والفر، وإنّما باتت تُتقن حرب الاخضاع والحصار اعتمادا على آلاته ومقومات حربه؛ فحرب المدن والحصون التي خاضت القيادة المغربية معتركها حتّمت عليها بدورها تطوير سلاح الحصار والرفع من مقدرته الهجومية، وابتكار التقنية الكفيلة باستخدامه بطريقة فاعلة وناجعة.

وعليه، فقد اعتمد الحماديون إلى جانب ترسانة أسلحة الحصار التي أنتجتها المصانع الحربية على قوات الجيش النظامي، وحتى القوات الغير نظامية التي عدّت الركيزة الأساسية التي تعتمد عليها الدولة في تثبيت كيانها وحماية رعيتها، كما اتخذ الجيش الحمادي الهيكلة القائمة على فرقة الفرسان أو الخيالة، وفرقة المشاة؛ هذه الأخيرة التي يستخدم جنودها القطع الحربية المختلفة ومنها أسلحة الحصار، حتى قيل: أنّ "المشاة سيّد الأسلحة"، والسيافة والرماحة والنشابة وفرقة حملة الدروع ونحو ذلك[5]. أما التكتيك الحربي الحمادي، فقد مزج بين الأسلوب الحربي القائم على النظام الخماسي والأسلوب الذي يعتمد المناورة مجالا لتسيير المواجهات العسكرية ضدّ الخصوم. هذا وقد اهتمّ بنو حماد أيضا كثيرا بالصناعة الحربية؛ لكونها تعدّ من بين الركائز الرئيسة للحفاظ على السيادة التامة على أراضيها وسلامة الرعية من الأخطار الأجنبية وتحقيق مطامحها التوسعية، وهو ما جعل القائمين على هذه الدولة لا يكتفون بما تنتجه المصانع المحلية في القلعة وبجاية من أسلحة كالدروع والسيوف والرماح والدروق والسلالم والدبابات ونحو ذلك من آلات الحصار وإنّما عمدوا أيضا إلى الاستيراد من أوروبا أو بلاد المشرق وكذا بلاد السودان[6].

لذلك فقد جنى بنو حماد ثمار اهتمامهم بنظام التسليح والزيادة في فعالية آلات الحصار وحسن مردودها بحيازتهم لنتائج ايجابية في حصاراتهم التي خاضوا معتركها ضدّ الخصوم إلى جانب اتقانهم لأساليب الحصار وفنونه وتكتيكاته المتنوعة من قبيل نجاحهم في حصار مدينة باغاية سنة 408هـ /1017-1018م تجسيدا لسياستهم التوسعية على

حساب أبناء العمومة من بني زيري، أو حصارهم لمدينة جربة سنة 510هـ /1117م، أو ما أبلاه جيش الحصار الحمادي من بلاء حسن –حتى ولو كان مصير الحصار هو الفشل– حين طوّق مدينة المهدية الحصينة سنة 530هـ /1135– 1136م[13] بالحصار وضيّق عليها بآلاته أشدّ التضييق. ولا نشكّ في أنّ خوض الجيش الحمادي لغمار هذه الحصارات –وحتى تلك التي لم يُدركوا الغاية منها– بأنّ مجرياتها قد ساهمت إلى حدّ بعيد في تحسين الخبرة العسكرية الحمادية في فن الحصار والوقوف على مدى قدرة سلاح الحصار المستخدم للزيادة في فعاليته.

كما ابتكر المرابطون الخطّة المعروفة بالتقرّي[7]، واعتماد نظام الخماسي لتوزيع الجيوش في المعارك، حيث ينقسم الجيش عندها إلى المقدمة والجناحان والوسط والمؤخرة[8]، وتسليح الجيش بمختلف الأسلحة المناسبة للجندي والمعركة كالسهام والتروس والدروع والخوذات والمطارد والعرادات والفيلة المصنوعة من الخشب، ونحو ذلك من الأسلحة الثقيلة لاستعمالها خاصة في حروبهم بالأندلس[9]، وذلك بصناعة هذه الأسلحة محليا وشراء البعض الآخر من بلاد الأندلس. هذا، و لم يغفل المرابطون عن سياسة شحن الحصون بالطعام والسلاح لتدعيم الجيش أيام الحصار[10]، حتى أنّ مخازن السلاح كانت تُقام داخل القصور ومقرات الحكم ونحوها[11]. وفي هذا اشارة واضحة على أنّ ساسة دولة المرابطين وقيادتها العسكرية كانت على استعداد تام لحرب الحصار هجوما أو دفاعا من خلال ما توّفره من أسلحة وما تذّخره من مؤن وما تعدّه من جيوش وما تزرعه من تحصينات.

ويجدر بنا أن نشير في هذا المضمار أنّ العتاد الحربي المكون لمنظومة أسلحة الحصار المرابطية قد تدعّم أكثر بألوان من الأسلحة الثقيلة واصطبغ بفعالية ملحوظة في طريقة الاستخدام في حصاراتهم بعدما خاضوا تجربتهم الحربية الهامة في حصارات المدن والحصون الأندلسية المنيعة، وتمرّسوا أكثر على فنونها في خضمّ حروبهم ضدّ النصارى أين ظفروا بأغلب نتائج الحصارات التي خاضوها وغنموا، مغانم كثيرة من حربها، وهو ما يشي بتطوّر ملموس في مجال فنّ الحصار المرابطي وتقنيات استخدام سلاحه بطريقة تجاوزت إلى حدّ كبير ما كان عليه أمر فن الحصار وسلاحه عند المرابطين في المرحلة الأولى من حياة دولتهم كحصارهم لمدينة أغمات سنة 449هـ /1057م أو حصار فاس وقلعة المهدي ببلاد فازان سنة 465/ 1072م حين اقتصر الأمر على فعل التطويق بالحصار دون ابتكار الطرائف الفاعلة للاقتحام واستخدام السلاح الثقيل الكفيل بتدمير دفاعات المحصور وزعزعة أركان مقوماتها[12].

لعلنا لا نبالغ ان قلنا أنّ ما شهدته حظيرة سلاح الحصار المغربية من تنوّع كبير في آلات الحصار الضخمة وما اصطبغت به من فعالية في استخداماتها للفتك بالخصوم، كان ما جسّدته المؤسسة العسكرية في العهد الموحدي؛ فإلى جانب الترسانة القوية من الأسلحة التي شدّ بها الموحدون عضد جيوشهم لإنجاح مسيرة حصاراتهم العديدة، أنتج الفكر العسكري الموحدي فنونا حربية وتقنيات هامة في مجال الاخضاع واقتحام المدن والحصون، حتى قيل أنّ شهرتهم في ذلك الفنّ تعدّت الحدود القطرية للسلطنة الموحدية، إذ كشفت عديد الدراسات التاريخية المنجزة عن النشاط الحربي الموحدي عن خبرة عبد المؤمن بفن الحصار كواحد من فنون الحرب الطويلة الأمد، فقد كانت تحصينات الخصوم تهون أمام قوة جيوش الموحدين وآلات الحصار كالمجانيق والدبابات. ناهيك عن التكتيك العسكري الذي انتهجه القائمون على السياسة العسكرية لتحقيق أهداف الدولة، حيث استحدث الموحدون نظام التربيع في القتال؛ المتمثل في خطة تعتمد على الشكل التربيعي على عكس نمط القتال المعروف بالخماسي المعهود عند الجيوش الاسلامية[14]؛ والتي ينتظم فيها

الجيش على شكل مربع، ويتكون هذا الأخير من أربعة صفوف من الجهات الأربع، بحيث كل صف يضم فرقة قتالية معينة، في الوقت الذي يتواجد القائد في القلب محاطا بالفرسان والحرس[15]. ولعل النجاحات الكثيرة التي حققها الموحدون في حروب الحصار التي خاضوها لدليل قاطع على خبرتهم في هذا الفن من الحرب وامتلاكهم للمؤهلات العسكرية المساعدة على ذلك في مجال أنظمة التسليح، كيف لا، وقد نجحوا في اقتحام أعتى وأقوى المدن وأمنعها ببلاد المغرب من مثل: حصار فاس ومراكش والمهدية وتلمسان ناهيك عن الانتصارات الباهرة على النصارى ببلاد الأندلس العامرة بالحصون والقلاع رغم خبرة النصارى بحرب الحصار وقوة حصونهم ومناعتها.

ثانيا: آلات الحصار: قراءة في التعدد الوظيفي وحجم النكاية:

1- الدبابات (الزحافات):

تعدّ الدبابة من بين الأسلحة الحربية الواسعة الاستعمال في حرب الحصار، ويرجع أوّل استخدام لها من طرف المسلمين إلى عهد دولة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث استخدمها في حصاره للطائف، إذ يذكر الطبري أنّه في هذه الغزوة "دخل نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت دبابة، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها فرمتهم ثقيف بالنبل"[16].

تجدر الإشارة إلى أنّ سلاح الدبابة الشائع الاستعمال في حصارات العصر الوسيط يختلف عن الدبابة المتطورة التي تعرفها الحرب العصرية من حيث الشكل والوظيفة ناهيك عن الفعالية؛ فالدبابة هي شبه برج متحرك له أربعة أدوار يتحرك على عجلات ويجلس ضمنه الجنود المكلفون بمهاجمة الحصون وتسلق أسوارها[17]، فإذا ألصقوها بالسور عملوا من داخلها بمساعدة آلات الحفر الحديدية على نقض حجارة السور من الموضع الذي أوهنته حجارة المنجنيق، حتى إذا فرغوا من عمل فجوة متّسعة فيه، ذهنوا الأخشاب بالنفط ثم أشعلوا فيها النار وانسحبوا إلى الدبابة، فإذا احترقت الأخشاب انهار السور مرة واحدة، تاركا ثغرة صالحة للاقتحام منها[18].

ويُذكر أنّ من بين طرق مقاومة الدبابة وصدّ هجوماتها أن تُحرق بالنار أو بالخنادق. وفي هذا الباب، يزوّدنا صاحب التذكرة الهروية بجملة من النصائح يسديها إلى القادة العسكريين إنْ هم راموا البراعة في فنّ الحصار دفاعا وهجوما، إذ يُشير عليهم من خلالها بالحلّ والمخرج الناجع لفك الحصار وافشاله، ومن ذلك فصله المعنون بـ "في الحيلة إذا حاصره عدوه والعمل في ذلك"، حيث يقول: "وإذا قصده عدو لا طاقة له به ويعجز عن دفعه وملاقاته فليبادر بإصلاح جنده واستمالة قلوب أصحابه ومقدمي عسكره ورعيته بجميع ما يقدر عليه... وليتفقد السور والأبراج والمرامي والطاقات ومواضع الطلاّقات"[19].

لقد تقرّر من خلال عديد الروايات التاريخية، بأنّ سلاح الدبابة قد رافق الجيوش المغربية وفي ريّادتها فرقة المشاة خلال معظم حروب الحصار على اختلاف القوى التي كانت وراءها؛ فكانت أخشابها تحمل إلى ميدان معارك الحصار بواسطة وسائل النقل الحيوانية، وهناك شواهد كثيرة على ذلك، منها أنّ الجيش الفاطمي استخدم هذا السلاح في العديد من عملياته الحربية، كما كانت سلاحا ضدّهم في فترات المحن التي آلمت بهم، وذلك أنّ سلاح الدبابة رافق أسلحة الحصار الهجومية كالمنجنيق والعرادة التي ضمّتها حظيرة عتاد الثائر الخارجي أبو يزيد النكاري ضد الفواطم في محاصرته لمدينة سوسة؛ حيث أمر بجميع النجارين الذين بالقيروان فحضروا إليه وعملوا له ثلاث دبابات

وكأنّها كالمنازل كما ورد على لسان الداعي ادريس، ثمّ نصب عليها المجانيق والعرادات، فأحرق من أهل سوسة ما أحرق. كما استعانت جيوش الموحدين في غير ما معركة حصار بهذا السلاح وكان القوة الضاربة لتحقيق الاقتحام واختراق أسوار الخصوم المحصورين[20]، ومن ذلك حصاراتهم لمدينة مراكش أو تلمسان سنة 540هـ/ 1145[21].

2- المنجنيق[22]:

المنجنيق سلاح حربي من النوع الثقيل كثير الاستخدام في رمي المحصور المتحصّن بقذائف من الأحجار أو السهام أو قوارير النفط[23]، إذ بحجارته تهدم الحصون والأبراج، وبقنابله تحرق الدور والمعسكرات[24]. وللمنجنيق أنواع أهمها: مجانيق قذف الحجارة، وهي من أعظم الآلات الحربية القديمة وأشدها تأثيرا في الحصار، وتقذف هذه المنجنيق قطع الحجارة الضخمة باتجاه العدو. وهناك منجنيق صغيرة لقذف الحجارة تعرف بالعرادة، يمكن نقلها وتحريكها بسهولة كبيرة، وهو ما يسمح لقادة الجيوش الذين يستخدمونها بمرونة الحركة وسهولتها[25]. ومجانيق قذف السهام، وتسمى أيضا بـ "قسي الزيار" وهي عبارة عن قوس كبير يرمي سهما هائل الحجم، يراوح طوله بين 60 و120 مترا، ووزنه من 2 إلى 3 كغ[26]. وهناك أيضا المجانيق التي تقذف الكرات النارية[27]، بالإضافة إلى مجانيق قذف القنابل[28].

وقد استخدمه المرابطون في بعض حصاراتهم خاصة في بلاد الأندلس، وكذا الموحدون في حصار المهدية وكذا قفصة سنة 554هـ/ 1159م[29]، كما أمر الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف سنة 579 للهجرة بصنع عشرة مجانيق جرّبت بالرمي أمامه بعد صنعها في منطقة البحيرة خارج مراكش استعدادا لحرب النصارى في الأندلس[30].

3- العرادة:

كما استخدمت العرادة في حروب الحصار المغربية، إذ بواسطتها تلقى الحجارة على أبعاد طويلة للفتك بأسوار وتحصينات العدو[31]، خصوصا وأنّها تمتاز بصغر الحجم لحملها من موضع مناسب إلى موضع أنسب.

4- الكبش:

هو آلة حربية من خشب تُجر بنوع من الحبال، وهو على شكل عمود مستدير يتفاوت طوله من كبش لآخر، فهناك من يبلغ طوله عشرة أمتار يحمل في مقدّمته رأسا من الحديد، وهو يكاد يشبه رأس الكبش، وعلى ذاك الأساس حمل هذا الاسم، وكان عمله في حرب الحصار يشدّ عضد مهمة الدبابة؛ حيث يُساعدان على دكّ الأسوار وهدم الحصون واختراق الأبواب، لذلك فهما سلاحان مكمّلان لبعضهما البعض؛ فالكبش تحمله الدبابة داخلها ثمّ يتدلّى رأسه من سطح الدبابة ليهدم الجنود السور ويقتحمون الحصن أو المدينة[32].

5-السلالم:

تعدّ من آلات حرب الحصار الضرورية التي استخدمتها القيادة المغربية في الفترة مدار الدرس، بحيث تثبّت على أسوار المواقع المحصورة لفتح مغاليق الحصون ودخولها[33]، ومن ذلك حصار الموحدين لمدينة مراكش سنة 541هـ[34].

6-الجسورات:

تشكّل أحد ألوان المعدات الحربية التي استعملتها الجيوش المغربية في حروب الحصار للعبور من سور لآخر من الأسوار المحيطة بالمدينة محلّ الحصار، أو من سلّم حصار لآخر أثناء عملية الاقتحام، في ما يُشبه آلة مكملة لوظيفة

السلالم التي يستغلها الجنود لامتطاء الأسوار وتسلقها، بحيث تساعدهم على سرعة الحركة وسهولتها للفتك بالخصم قبل أيّ ردّ فعل هجومي لإفشال الحصار.

7- الكلاليب:

هي نوع من الخطاطيف الحديدية التي كان الجيش البحري يستخدمها للرمي على مراكب العدو لجذبها وشدّها والعبور إليها عن طريق ألواح خشبية أو سلالم لقتال ركابها خاصة في حرب الحصار العسكري[35]. وتتشابه وظيفة هذه الآلة الحربية مع وظيفة الجسورات المستعملة للانتقال من سور لآخر، مع أنّ الاختلاف يكمن في لون الحصار المتّبع؛ فالكلاليب تكون في الحصار البحري أمّا الجسورات فتكون في البري وفي أحيان أخرى في اللونين معا.

بالإضافة إلى هذه الوسائل المادية، كانت القيادة المغربية تعتمد وسائل أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها متمثلة في الوسائل الحية، وهي الحيوانات التي تشكّل مقوّما هامّا من مقوّمات النشاط الحربي، سواء باستخدامها كوسيلة لنقل السلاح أو الطعام والمتاع أو لحمل الفرسان والجند، خاصة الحيوانات التي تمتاز بخفة الحركة وسرعتها كالخيول؛ فقد كانت هذه الأخيرة وسيلة حربية لا يمكن الاستغناء عنها في الحروب مهما كان نوعها حصارا أو حرب الصدام والمواجهة؛ ففرقة الفرسان تعدّ ركنا رئيسا لا غنى عنه في هيكلة الجيوش المغربية بصفة خاصة والعصر الوسيط بشكل عام. كما كانت الابل وسيلة مساعدة للخيل في مهمة حرب الحصار طويل المدى كان أو قصيرا[36]. هذا دون أن نغفل عن الأهمية التي تكتسيها الأسلحة الخفيفة في بناء منظومة التسليح الخاصة بحرب الحصار[37].

وقبل أن نغادر مضمار الدراسة الخاصة بالسلاح الحربي الهجومي الخاص بحرب الحصار البري لا بأس أن نستأنس بنصوص صاحب التذكرة الهروية القيّمة في مجال التنظير والتوجيه العسكري بكل مقوماته البشرية والمادية، والذي لم يبخل على القادة العسكريين بالنصيحة الحربية التي تعدّ طريقا معبّدا لإنجاح سياسة الحصار التي يُقْدمون عليها، حين حثّهم على الاكثار من صناعة سلاح الحصار وتطويره بما يتماشى ونوع المنطقة المحصورة، وإلى جانب ذلك دعاهم للتحلي بالذكاء والحيلة وحتى الخديعة[38] للتمكّن من سلاح العدو وضمّه إلى عتاده لحسم نتائج المعركة إذا ما جرّد العدو من السلاح الذي يمكّنه من المقاومة والتصدي به للحصار، ومن بين السبل إلى ذلك المبتغى أن يسعى بجواسيسه وعيونه لاستمالة بعض القادة من أعدائه ليمكّنوه من "العدة والعدد والكبورة والزرد وقوارير النفط وجميع آلة الحرب والزحف والنقب كالسلالم والحبال"[39]. وهي نصائح وتوجيهات قيمة كانت ديدن القادة العسكريين للعمل بها وتجسيدها ميدانيا في مسيرة سياستهم الحربية خصوصا بعدما تعاظمت الأخطار المحدقة ببلادهم داخليا وخارجيا لترويض المعارضين والمتمردين والدود عن الحياض وردّ التحرشات، أو موازاة مع تنامي طموحاتهم التوسعية؛ وهو ما جعل حسن التخطيط العسكري والتكتيك الحربي يكون سلاحا فتّاكا إلى جانب السلاح الحربي كما أسلفنا.

ثالثا- أسلحة الحرب البحرية:

إلى جانب ما ذكرنا، اهتمّ قادة الكيانات السياسية التي قامت بالمغرب الاسلامي الوسيط بالحرب البحرية التي كانت تقوم بالأساس على حرب الحصار العسكري، وذلك من خلال بناء الأساطيل البحرية القوية على اعتبارها عمدة عتاد هذا اللون الحربي والقوة الداعمة لنشاط الجيوش البرية، وذلك طبعا من خلال الاهتمام ببناء دور صناعتها وتطويرها موازاة مع ما تحوزه بلاد المغرب من امكانات ومادة أولية لتغذية هذا النوع من الصناعة الحربية البحرية على

غرار الأخشاب في جبال بجاية وأوديتها وفي جبال بني يزغة بالقرب من فاس، والمعادن كالحديد والنحاس في بونة ومجانة والأربس وبجاية والقلعة[40]، والقطران والزفت والكبريت بأقاليم بجاية وبونة ومرسى الخزر[41].

وعليه، فقد زُرعت هذه الأساطيل على السواحل المغربية في بجاية، وهران، هنين، تونس، المهدية، فاس وغيرها من المدن الساحلية استعدادا لصدّ ومدافعة أيّ اعتداء محتمل، وتحسّبا لأي عملية هجومية تُشير بها القيادة العسكرية. وكان من مهام مراكب هذه الأساطيل إلى جانب النشاط الهجومي في حرب والحصار أنّها تُستخدم في نقل المعدات الحربية وآلات الحصار، وحراسة السواحل والمضايق. وتجلى ذلك بشكل واضح في عهد حكم الفاطميين ببلاد المغرب، إذ كانت بالمهدية دار لصناعة السلاح، وممّا يشي بضخامتها أنّ الرحالة التجاني يصفها بأنها من عجائب الدنيا، ولقد حافظت هذه المدينة الحصينة على ذات الوظيفة العسكرية لردح من الزمن بعد رحيلهم إلى أرض مصر، سواء في عهد بني زيري أو عهد من خلفهم على ادارة شؤونها من الموحدين[42].

أمّا بشأن الحماديين فقد تعاظم اهتمامهم أكثر بهذا النوع من الصناعة الحربية وبناء الأساطيل البحرية، خصوصا في ظل تنامي الخطر الصليبي النورماندي الوافد من الشمال، إذ كان من الطبيعي أن يحمل بنو حماد أوزار ذلك الوضع المضطرب ويلقون على عاتقهم كامل المسؤولية لصدّ خطر النصارى على كل من بلاد المغرب الأوسط والأدنى. ولما كان هذا التوجّه العسكري في السياسة الحربية الحمادية يتطلّب قوة عسكرية كبيرة تفي بالغرض، أطلق عند ذاك قادة بني حماد أيديهم في بناء ترسانة حربية قوية ومتنوعة لمجابهة ذلك الخطر، وتنفيذ مشاريعهم التوسعية.

لم يغفل القائمون على دولة المرابطين عن الاهتمام بهذا النوع من الصناعة الحربية في حروبهم المختلفة خاصة ضدّ نصارى صقلية والأندلس، حيث تمكنوا من بناء أسطول بحري قوي كان سندا قويا ودعامة كبيرة للجيش البحري في مختلف حروب الحصار التي قادوها. وبلغت العناية بإقامة الأساطيل والصناعة الحربية البحرية مبلغا كبيرا في عهد دولة الموحدين الذين اعتنوا ببناء الأساطيل في نواح مختلفة من سواحل المغرب، ناهيك عن إنشاء المدارس الحربية المعدة لتخريج رجال السياسة وقادة الجيش والأسطول في مراكش. ويلحق بذلك القيام بالمناورات البحرية للاختبار والوقوف على الجاهزية للحرب والحصار البحري؛ ففي مدينة المعمورة في عهد عبد المؤمن بن علي الموحدي تمّ انشاء أسطول بحري بلغ تعداد سفنه حوالي أربعمائة سفينة، وفي طنجة وسبتة وبادس ومراسي الريف ما يقارب مئة سفينة، وفي بلاد المغرب الأدنى والأوسط كالمهدية وهران ومرسى هنين حوالي مائة قطعة بحرية[43]. وهذا لا ريب ما جعل عديد المدن المغربية تضطلع بالدور الريادي في حرب الحصار البحري وصدّ أيّ عملية هجومية ضدّها في غالب الصدامات التي أدارت مجريات معاركها في الفترة مدار الدرس، وهذا طبعا إلى جانب امكانات الحصانة والمناعة التي تحوزها، والفِرق العسكرية المرابطة بها، ومن ذلك ما اضطلعت به مدينة المهدية ذات الموقع الطبيعي الحصين بالإضافة إلى كل من: تونس، سوسة، بجاية، عنابة، فاس، مراكش وغيرها من المراكز المغربية الحصينة الأخرى، التي كانت منطلقا للعمليات الحربية المتعددة في مجال حرب الحصار البحري[44].

أمّا في ما يخصّ أهمّ أنواع الأسلحة الحربية الثقيلة المستخدمة في حرب الحصار، فنجد: السفن، والحرابي، والطرائد، وكانت قوة عسكرية كبيرة شدّت عضد جيوش كل من: القيادة الحمادية والمرابطيةوالموحدية[46].

في حين أنّ من القطع البحرية الكبيرة المزودة بالأشرعة وآلات الحصار كالمنجنيق والدبابات والسلاح النفطي، فنجد: الشواني، التي يتم صناعتها في بجاية وبونة والمهدية وفاس، والغرابين، والتي كانت سند الجيش الحمادي في حصار المهدية سنة 530هـ /1136م، أو الجيش الموحدي في حصاره للمهدية سنة 555هـ. بالإضافة إلى الحراريق التي تعدّ من أخطر المراكب التي امتلكتها القيادة المغربية واستغلتها في حرب الحصار خلال فترة العصر الوسيط[48].

وبالإضافة إلى الصناعة المحلية للمراكب والسفن الحربية كانت القيادة المغربية تلجأ أحيانا –حسب مقتضيات الحروب التي تخوضها وراهن المستجدات العسكرية التي تحيق بكياناتها من مثل تنامي خطر الأعداء وتعاظم قوتهم الحربية وتزايد عدد الخصوم وتوسّع مجال المطامح التوسعية إلى شراء الأسلحة من بلاد الأندلس كالطرائد والشلنديات والمسطحات، ناهيك عن المراكب التي كانوا يستولون عليها من أعدائهم في المعارك التي يظفرون بنتائجها. ونشير في هذا المضمار أنّ فعالية السلاح البحري لا تكتمل إلاّ إذا شدّ عضد مهامه الحربية السلاح الخفيف واقترن استخدامهما بامتلاك التقنية الحربية العالية في الاستخدام أو الاختراق، ومن تلك الأسلحة على سبيل المثال لا الحصر: اللجام أو الفأس؛ والتي هي عبارة عن كتلة طويلة من الحديد مدببة المقدم كسنان الرمح يحملها الجند في سفينتهم ثم يدفعونها على سفينة العدو لتصدمها به في مقدمها فتحرقها، أو اللتوت والدبابيس؛ المتمثلة في عمد من الحديد لاستخدامها في تهشيم الخوذات المعدنية، أو باقي الأسلحة الخفيفة الأخرى الشائعة الاستخدام في حصارات البر أو البحر على حدّ سواء كالقسي والرماح والأقواس والنشاب[50].

الخاتمة :

تأسيسا على تمّ بسطه قادنا البحث للرسو عند ميناء جملة من النتائج نحصرها في ما يأتي عرضه تبعا:

– كانت طبيعة السياسة الحربية التي تنتهجها القيادة العسكرية المغربية هي التي تملي عليها في غالب الأحيان نوعية السلاح الحربي الذي ينبغي صناعته أو شراؤه، كما يحتكم ذلك في أطوار أخرى لطبيعة الظروف العسكرية والمستجدات الطارئة على ساحتها؛ ذلك أنّ صناعة السلاح الأقدر على صناعة الفارق وحصد النتائج الإيجابية في حرب الحصار ينبغي أن يخضع لحجم التطور الحاصل في مجال الصناعة الحربية المحلية والخارجية من أجل ملامسة التكافؤ العسكري فضلا عن الغلبة والتفوّق.

– تجلّت براعة الحماديين في حرب الحصار بشكل ملحوظ بعد انتقالهم إلى العاصمة الجديدة: مدينة بجاية الساحلية.

– ركن أمراء المرابطين في مرحلة أولى من حياة دولتهم لسياسة الدفاع، حيث التزموا بإقامة المنشآت الدفاعية الكفيلة بصدّ الخطر الخارجي أكثر من إقبالهم على الفعل الهجومي، وهو ما يوحي بأنّ تقنياتهم في حصار الهجوم لم ترق إلى مستويات عالية مقارنة بمهارتهم في فنون الامتناع، وعلى العكس من ذلك وقفنا على أنّ ساسة قادة دولة الموحدين قد أحسنوا فنون حرب الحصار وضلعوا في فنونها وتقنياتها.

الهوامش:

(1)– للوقوف على الدلالة اللغوية للحصار، انظر: الفراهيدي: كتاب العين، ج3، تحقيق، مهدي المخزومي وابراهيم السمرائي، ص113، ابن منظور: لسان العرب، مج2، تح، عبد الله علي الكبير و آخرون، دار المعارف، مصر، ص 897.

(2)– والأسلحة الهجومية كانت نوعان: خفيفة وثقيلة، انظر بشأنها: البكري: المسالك و الممالك، مج2، تح، جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ–2003م، ص 241، ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب و البربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج6، ضبطه،

خليل شحادة، راجعه، سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،1421هـ-2000م، ص227، فتحي زغروت: الجيوش الاسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين، دار التوزيع والنشر الاسلامية، القاهرة، مصر، 1426هـ/ 2005م، ص183.

(3)– ونشير بأنّ الأسلحة الحربية المتنوعة التي تمّ استخدامها في حصارات القيادات العسكرية المغربية تعدّ تقريبا ذات الأسلحة التي عرفتها بلاد المشرق.

(4)- زغروت: المرجع السابق، ص177.

(5)- موسى هيصام: "الجيش في العهد الحمادي..."، رسالة ماجستير، كلية العلوم الانسانية، جامعة الجزائر، الجزائر2000- 2001، ص11-16.

(6)- المرجع نفسه، ص46-53.

(7)- أنظر بشأن هذه الخطة: صالح فياض: "فنون القتال عند المرابطين والموحدين والحفصيين"، مجلة المؤرخ العربي، العدد 39، العراق، ص231.

(8)- أبو القاسم غومة: "تطور المؤسسة العسكرية في دولتي المرابطين والموحدين..."، رسالة ماجستير، جامعة الفاتح، ليبيا، 2004، ص15.

(9)- فياض: المرجع السابق ، ص231.

(10)- المرجع نفسه، ص233.

(11)- حفصة معروف: الفكر العسكري عند الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي، دار شطايبي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص59.

(12)- توفيق مزاري عبد الصمد: "التنظيمات العسكرية المغربية في عهدي المرابطين والموحدين"، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، بوزريعة، الجزائر، 1999هـ/2002، ص206.

(13)- هيصام: المرجع السابق، ص79-80.

(14)- معروف: المرجع السابق، ص187.

(15)- فياض: المرجع السابق ، ص239،244.

(16)- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج3، تح، محمد أبو الفضل ابراهيم، ط2، دار المعارف، مصر، ص82-85.

(17)- أنظر: ابن أرنبغا الزردكاش: الأنيق في المنجانيق، حققه وقدم له، احسان هندي، دار الكتب الوطنية هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، الامارات العربية المتحدة، 1434هـ/ 2013م، ص69، وفيق بركات: فن الحرب البحرية في التاريخ العربي الاسلامي، منشورات جامعة حلب معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، سوريا، 1416هـ/ 1995م، ص141.

(18)- الحموي: مستند الأجناد في آلات...، تح، أسامة ناصر النقشبندي، دار الوثائق للدراسات والطبع والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ص85.

(19)- علي بن أبي بكر الهروي: التذكرة الهروية في الحيل الحربية، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، ص26.

(20)- الداعي ادريس: المصدر السابق، ص337-338، ابن الأثير: المصدر السابق، مج7، ص197.

(21)- للتفصيل أكثر، أنظر: معروف: المرجع السابق، ص105.

(22)- حول معنى كلمة منجنيق، انظر: الزردكاش: المصدر السابق، ص12، الثلاثيني: المرجع السابق، ص58.

(23)- الزردكاش: المصدر السابق، ص12.

(24)- شيت خطاب: المرجع السابق، ص161.

(25)- الزردكاش: المصدر السابق، ص22، بركات: المرجع السابق، ص141.

(26)- الزردكاش: المصدر السابق، ص22.

(27)- حول ممّا يتشكّل المجانيق ونماذج من هيكلها، أنظر: ابن أرنبغا الزردكاش: المصدر السابق، ص40-45.

(28)- المصدر نفسه، ص23-24.

(29)- محمد غومة: المرجع السابق، ص75.

(30)- زغروت: المرجع السابق، ص170.

(31)- وهي من الآلات الحربية التي استعملها المرابطون في حروبهم، للتفصيل أكثر، أنظر: معروف: المرجع السابق، ص58.

(32)- شيت خطاب: المرجع السابق، ص166.

(33)- الزردكاش: المصدر السابق، ص34.

(34)- زغروت: المرجع السابق، ص161، محمد غومة: المرجع السابق، ص75.

(35)- بركات: المرجع السابق، ص138.

(36)- أنظر: معروف: المرجع السابق، ص107.

(37)- كما تعدّدت الأسلحة الخفيفة التي كانت تُستخدم إلى جانب السلاح الثقيل الفتاك منها: القوس والسهم والحراب والدروع.

(38)- بشأن معنى الخدعة الحربية، انظر: سليمان أبو ريدة: "الخدع العسكرية للمسلمين...، رسالة ماجستير، الجامعة الاسلامية، غزة، فلسطين، ص9.

(39)- الهروي: المصدر السابق، ص25.

(40)- هيصام: المرجع السابق، ص49.

(41)-السيد عبد العزيز سلم ومختار العبادي: تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1969، ص57.

(42)- التجاني: رحلة التجاني، قدم لها، حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا –تونس، 1981، ص323.

(43)- فياض: المرجع السابق ، ص239،241.

(44)- بركات: المرجع السابق ، ص121.

(45)- معروف: المرجع السابق، ص131.

(46)- معروف: المرجع السابق، ص131.

(47)- بركات: المرجع السابق ، ص137-146.